معنى أن شرك الأولين أخف من شرك الحاليين

وذكر أيضا الشيخ في موضع آخر من كتبه: أن المشركين الأولين أخف من المشركين الحاليين بأمرين: هذا الأمر: هو إخلاصهم في الشدة، والأمر الثاني: أنهم لا يعبدون إلا أناسا صالحين -كالأنبياء والصالحين- أو يعبدون أشجارا وأحجارا لم تذنب، بل هي مسخرة، وأما هؤلاء القبوريون المشركون في هذا الزمان، فإنهم يعبدون أناسا فسقة وعصاة، يقول: إن الذين يعبدونهم ينقلون عنهم تلك القصص التي تدل على الفسوق، فينقلون عنهم الزنا، وأكل المال بغير حق، وينقلون عنهم شرب الخمور، وما أشبه ذلك. ولكن أتباعهم يدعون أنهم قد سقطت عنهم التكاليف، فلذلك لا حرج عليهم. يذكرون ذلك حتى الآن في بعض البلاد التي تنتمي إلى الإسلام، ويكون عندهم من يسمونهم بالأولياء، فهذا الولي عندهم له مكانته، بحيث إنهم يزفون إليه العروس قبل أن تزف إلى زوجها حتى يفتضها، ويقولون: لننالها بركة هذا الولي!! نعوذ بالله، وأنه بحيث فيهم، إذا أخذ شيئا من أموالهم لم يطالبوه؛ لأن له عندهم مكانة، فلا يطالبونه ولا يأخذون منه، بل كأنه مفوض ليأخذ ما يريد، ثم بعد موته يغلون فيه، ويعبدونه من دون الله تعالى -نعوذ بالله-. وكذلك قرأ لنا بعض المشايخ: أن البدوي الذي يعبد في مصر لم يشتهر بشيء من العبادة والصلاة، بل إنه دخل المسجد مرة، والناس في صلاة الجمعة، فكشف عن عورته وبال! والناس ينظرون، وَحَرَجٌ ولم يصلِّ، فاتبعوه وقالوا: هذا مجذوب!! هذا قلبه عند ربه!! هذا قد وصل! وكان من آثار ذلك أن عُبِدَ، كما هو الحال، وإن كان له قصص أخرى ذُكِرَتْ في كتب التاريخ. وجنس هذا أيضا كثير. وفي أبيات الصنعاني القصيدة البائية المشهورة، يقول فيها: كقوم عراة في ذرى مصر ما تُرَى على عورة منهم هناك ثيابُ يعدونهم في مصرهم من خيارهم دعاؤهم وفيما يرون مجابٌ وصلوا إلى هذه الحالة، أنهم يمشون عراة، ليس على عوراتهم ثياب، وأن ضعفاء الدين يتمسحون بهم، ويدعون أنهم من خيارهم، وأن دعوتهم مستجابة. فأين هذا من شرك العبودية؟! الذين إنما يعبدون الصالحين لقوله صلى الله عليه وسلم: { إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح } الصالحين، وكذلك قوم نوح إنما عبدوا أناسا صالحين ودا و سواع ونحوهم. فكيف بمن يعبد هؤلاء الفسقة؟ معلوم أن أفضل الناس الأنبياء، وهل الأنبياء سقطت عنهم التكاليف؟ أفضلهم نبينا صلى الله عليه وسلم، قام في الليل حتى تفطرت قدماه، فقيل: تفعل ذلك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: { أفلا أكون عبدا شكورا } فكيف يقال: إن هؤلاء وصلوا إلى حظيرة القدس؟! وأنهم سقطت عنهم التكاليف؟ وأنهم أولياء الله؟! ويستدلون بقوله تعالى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } . فنقول لهم: اقرءوا ما بعدها: { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } فكل من كان من أهل الإيمان الصحيح، وأهل التقوى الصحيح فإنه يكون من أولياء الله تعالى، فأما مثل هؤلاء فإما أنهم مجانين! فكيف يكون المجنون أفضل من الأنبياء؟! وإما أنهم عصاة معاندون، يقصدون من الناس أن يغلوا فيهم، وأن ينخدعوا بهم. فهذا ونحوه دليل على أن الشرك بعبادة غير الله تعالى من الأموات ونحوهم، أنه من عادات المشركين الأولين والآخرين. ذكرنا في المقدمة أن أول من انتبه لذلك وتوسع فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتبعه على ذلك تلميذه ابن القيم فمن قرأ كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) عرف أن الشيخ رحمه الله انتبه لما وقع فيه المشركون في زمانه من عبادة القبور، وكذلك ما ذكره ابن القيم بصيغة واضحة، وبعبارة قوية، في كتابه(إغاثة اللهفان) فلما أن الشيخ رحمه الله ابن عبد الوهاب انتبه لذلك، ألف فيه هذه المؤلفات التي نفع الله تعالى بها من أراد به خيرا. وأما من كان محروما عن الخير فهو ممن عادى الله تعالى، وعادى أولياءه، وعادى دعوته. نكتفي بهذا. بارك الله فيك فضيلة الشيخ! س: يقول السائل: كيف ترد على من يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } . الآية صريحة في أنهم جاءوا إليك؟ أي في حياتك تائبين معترفين بأنه وقع منهم ظلم لأنفسهم؛ يقولون: يا رسول الله، نحن أخطأنا ووقعنا في معصية؛ فاستغفروا لنا؛ حتى يغفر الله ما وقعنا فيه، نحن الآن تائبون، مقلعون من هذه الخطايا التي وقعنا فيها؛ فحث لهم على أن يستغفروا الله ويستغفر لهم الرسول، ولكن قد أخبر الله تعالى بأنهم يمتنعون من ذلك في قوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } ؛ والحاصل أن هذه الآية في المنافقين، والدليل ما قبلها من الآيات؛ من قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا } ثم قال بعد ذلك: { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ } أي جاءوك في حياتك فلا يغتر بمن جعلها عامة في إتيانه بعد موته؛ وأن من جاءه بعد موته، وقال: يا رسول الله استغفر لي، فإنه تحصل له المغفرة. وأما الحكاية التي ذكرها ابن كثير عند تفسير هذه الآية، فهي مما أنكرت على ابن كثير رحمه الله؛ حكاية العتبي الذي ذكر أنه جاء أعرابي إلى القبر الشريف فأنشد بيتين، والبيتان الآن مكتوبان على القبر أو على الحجرة: يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم يقول: إنه لما رجع- يقول العتبي - غلبتني عيني، فرأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال أدرك الأعرابي؛ أخبره أن الله قد غفر له. الحكاية لا سند لها ولا أصل لها، ومع ذلك -ومع الأسف- يكثر تناقلها حتى في كتب العلماء؛ الكتب الفقهية حتى ذكرها صاحب كشاف القناع وغيره؛ فلا يغتر بها. فالحاصل أن الآية خاصة بحياة النبي -صلى الله عليه وسلم- ولو كانت عامة له بعد موته لتوافد الناس في عهد الصحابة، وعهد الخلفاء وجاءوا أفواجا أفواجا، يقولون: يا رسول الله، استغفر لنا. يسألونه بعد موته، ولما لم يفعلوا دل على أنهم فهموا أنها خاصة بحياته عم. س: يقول السائل: ما الفرق بين دعاء العبادة ودعاء المسألة مع أن كلا منهما مستلزم الآخر؟ دعاء العبادة تدخل فيه جميع القربات؛ فالصدقة عبادة وكذلك الصلاة عبادة، وبر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار، والحج والعمرة والجهاد والاعتكاف يعني: سائر القربات تسمى عبادة، ولكن نسميها دعاءً؛ لأن الذي يفعلها -كما ذكرنا- ما قصد إلا الثواب عليها؛ فلسان حاله يقول: أصلي لك يا رب حتى تغفر لي، أتصدق لك يا رب حتى تخلف علي وتبارك لي وترزقني، أحج لك يا رب حتى تغفر سيئاتي؛ فكأنه بلسان الحال يدعو؛ فلذلك تسمى العبادة دعاءً؛ دعاء عبادة، أي: أنها تتضمن الدعاء. وأما دعاء المسألة: فهي الطلب؛ كونه يرفع يديه، ويسأل ربه، هذا دعاء مسألة، ولكن هو في الحقيقة يستلزم دعاء العبادة، يعني: إذا عرفنا أن العبادة هي الذل، فالذي يسأل الله تعالى يستلزم أن يكون في حالة سؤاله متذللا متواضعا متخشعا متضرعا، وهذا هو التعبد. نعم. س: يقول: هل نحكم بكفر كثير من المسلمين اليوم الذين يطوفون على القبور ويعظمونها؟ لا شك أنهم بهذه الحال قد وقعوا في الشرك؛ فنقول: إنكم مشركون وإن فعلكم هذا من الشرك؛ إذا كنتم تذبحون للقبور، وتتعبدون عندها، وتتحرون الصلاة عندها، وتفصلون ذلك على عبادة الله، وعلى طاعته في المساجد، وتفصلون دعاء هذا الميت؛ هذا المقبور على دعاء الله السميع القريب، فقد أشركتم شئتم أم أبيتم، ولو سميتم ذلك توسلا واستشفاعا وتبركا وتقربا؛ فإنه لا يفيدكم، فأنتم مشركون إلا أن تتوبوا. نعم. س: يقول: من الشبهات التي يتشبث بها المستغيثون بغير الله آيات كثيرة تدل على الاستجابة لأصحاب القبور لتفريج قربات من سألهم؛ إجابة دعواهم، والله عز وجل لم يفعلوا دل على أنهم فهموا أنها خاصة بحياته عم. س: يقول السائل: ما الفرق بين دعاء العبادة ودعاء المسألة مع أن كلا منهما مستلزم الآخر؟ دعاء العبادة تدخل فيه جميع القربات؛ فالصدقة عبادة وكذلك الصلاة عبادة، وبر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار، والحج والعمرة والجهاد والاعتكاف يعني: سائر القربات تسمى عبادة، ولكن نسميها دعاءً؛ لأن الذي يفعلها -كما ذكرنا- ما قصد إلا الثواب عليها؛ فلسان حاله يقول: أصلي لك يا رب حتى تغفر لي، أتصدق لك يا رب حتى تخلف علي وتبارك لي وترزقني، أحج لك يا رب حتى تغفر سيئاتي؛ فكأنه بلسان الحال يدعو؛ فلذلك تسمى العبادة دعاءً؛ دعاء عبادة، أي: أنها تتضمن الدعاء. وأما دعاء المسألة: فهي الطلب؛ كونه يرفع يديه، ويسأل ربه، هذا دعاء مسألة، ولكن هو في الحقيقة يستلزم دعاء العبادة، يعني: إذا عرفنا أن العبادة هي الذل، فالذي يسأل الله تعالى يستلزم أن يكون في حالة سؤاله متذللا متواضعا متخشعا متضرعا، وهذا هو التعبد. نعم. س: يقول: هل نحكم بكفر كثير من المسلمين اليوم الذين يطوفون على القبور ويعظمونها؟ لا شك أنهم بهذه الحال قد وقعوا في الشرك؛ فنقول: إنكم مشركون وإن فعلكم هذا من الشرك؛ إذا كنتم تذبحون للقبور، وتتعبدون عندها، وتتحرون الصلاة عندها، وتفصلون الصلاة عندها على الصلاة